دعاءٌ يجمع الهداية والفضل والرحمة والبركة

لمات قليلة، لكنها تفتح أمام القلب آفاقًا واسعة من الرجاء، وتجمع حاجات الإنسان في مسيرته: هداية ترشده، وفضل يغنيه، ورحمة تحتضن ضعفه، وبركة تجعل ما أُعطيه نافعًا طيب الأثر.

ورد في الدعاء المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقول المؤمن في دُبُر كل صلاة:

«اللَّهُمَّ اهْدِنِي مِنْ عِنْدِكَ، وَأَفِضْ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ، وَانْشُرْ عَلَيَّ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ». [١]

وفي تأمل هذه المعاني يتعلم المؤمن كيف يسأل ربّه، وكيف ينظر إلى حياته، وكيف يحوّل الدعاء من ألفاظ ينطق بها لسانه إلى معانٍ تصوغ سلوكه وعلاقاته.

بعد الصلاة… يمتد أثر اللقاء:

يقف المؤمن في الصلاة بين يدي ربّه، يقرأ ويركع ويسجد، ثم يخرج منها إلى شؤون يومه ومسؤولياته. ويأتي الدعاء في ختام هذا اللقاء ليصل العبادة بالحياة، وليذكّر القلب بأن حاجته إلى الله لا تنتهي بانتهاء الصلاة، بل ترافقه في قراراته وأعماله وعلاقاته.

فهو يحتاج إلى الله حين يتحدث كما يحتاج إليه حين يصمت، وحين يختار كما يحتاج إليه حين يتردد. ومن هنا يحمل الدعاء بعد الصلاة معنى الاستمرار في العبودية؛ إذ يسأل العبد ربّه أن يصحبه أثر القرب منه إلى البيت والعمل والمجتمع، وأن تظهر ثمرة صلاته في صدقه وعدله وحسن معاملته.

«اللهم اهدني من عندك»… البداية من صحة الطريق:

تتقدم الهداية سائر المطالب في هذا الدعاء؛ لأن الإنسان قد يمتلك المال والمعرفة والقدرة، ثم يسيء توجيهها، فتتحول النعم في يده إلى أسباب للشقاء أو الإضرار بالآخرين. أما الهداية فتمنحه بصيرة يعرف بها موضع خطوته، والغاية التي ينبغي أن يسعى إليها.

والهداية حاجة متجددة، حتى لمن عرف طريق الإيمان؛ فهو يحتاج إلى الثبات عليه، وإلى فهم الحق في المواقف الملتبسة، وإلى الشجاعة في اتباعه حين يخالف هواه أو مصلحته القريبة. وقد يعرف الإنسان الصواب، لكنه يضعف عن العمل به، فيسأل الله نور المعرفة وقوة الاستجابة معًا.

وفي قوله: «من عندك» اعتراف بحدود النفس؛ فمهما اتسعت خبرة الإنسان، يظل معرضًا للخطأ والانخداع. ولذلك يستعين بربّه، ويأخذ بأسباب التعلم والمشاورة والتثبت، ويتواضع حين يتبين له أنه أخطأ.

«وأفض عليّ من فضلك»… عطاء يوقظ الشكر:

الفضل عطاء يتجاوز ما يتصوره العبد لنفسه، ويذكّره بأن كثيرًا مما يعيش فيه من الخير لم يصنع أسبابه وحده. فقد يجد من يعينه في وقت الضيق، أو يُفتح له باب نافع لم يتوقعه، أو يُرزق قدرة على تجاوز محنة ظنها أكبر من احتماله.

ولا ينحصر فضل الله في المال؛ فمنه العلم النافع، والصحة، والصحبة الصالحة، وراحة الضمير، والقدرة على خدمة الناس. وقد يكون من أعظم الفضل أن يُصرف الإنسان عن طريق كان يراه مكسبًا، ثم يكتشف ما كان يحمله من أذى.

وحين يقول المؤمن: «وأفض عليّ»، فإنه يفتح قلبه لسعة العطاء، ويستقبل النعمة بروح الشكر. والشكر يظهر في حفظها وحسن استعمالها؛ فمن أُعطي علمًا بذله، ومن وُسّع عليه في رزقه واسى المحتاج، ومن مُنح مكانة جعلها عونًا لأصحاب الحاجات.

«وانشر عليّ من رحمتك»… سكينة في مواضع الضعف:

في لفظ «وانشر» معنى الامتداد والشمول؛ كأن الداعي يرجو رحمة تحيط بجوانب حياته، وتبلغ مواضع خوفه وحزنه وتقصيره. فهو لا يخلو من ضعف يحتاج إلى جبر، ولا من ذنب يحتاج إلى مغفرة، ولا من ألم يحتاج إلى سكينة.

والرجاء في رحمة الله يمنع القلب من الاستسلام لليأس. فإذا أخطأ الإنسان، عاد تائبًا، وإذا تعثر، استأنف المحاولة، وإذا ضاقت عليه الأسباب، بقي متعلقًا بربّه دون أن يترك السعي.

ولهذا الدعاء أثر في معاملة الآخرين أيضًا؛ فمن يستشعر حاجته إلى الرحمة يصبح أقدر على فهم ضعف الناس. فيرفق بطفل، ويصبر على مريض، ويحسن إلى مسن، وينصح المخطئ دون تشفٍّ أو إهانة. وهكذا تنتقل الرحمة من مطلب يرجوه لنفسه إلى خُلُق يبذله لمن حوله.

«وأنزل عليّ من بركاتك»… خير يتجاوز مقدار النعمة:

البركة ليست مجرد كثرة في الأشياء، بل خير يثبت فيها ويثمر منها. فقد يملك الإنسان وقتًا طويلًا يضيعه، ويُوفَّق آخر في وقت محدود إلى عمل نافع. وقد يكون الرزق قليلًا، لكنه يسد الحاجة ويصون الكرامة ويبعث الطمأنينة.

وسؤال البركة يعلّم المؤمن أن ينظر إلى ثمرة النعمة، لا إلى حجمها وحده. فيرجو علمًا يهديه وينفع به، وعمرًا يعمره بالخير، ومالًا يعينه على الطاعة، وأسرة تسودها المودة.

ويصاحب هذا الرجاء سعي عملي: تحرّي الحلال، وأداء الحقوق، وصلة الرحم، واجتناب الظلم والتبذير. فلا يليق بمن يسأل البركة أن يهدر ما بين يديه أو يبني منفعته على أذى غيره.

دعاء يتجدد في تفاصيل اليوم:

ما أجمل أن يتوقف المؤمن عند هذه الكلمات بعد صلاته، مستحضرًا حاجته الخاصة إلى كل معنى: قرارًا يطلب فيه الهداية، ومسؤولية يرجو لها الفضل، ووجعًا يلتمس له الرحمة، ونعمة يسأل لها البركة.

ومع تكرار الدعاء بوعي، ينمو في القلب صدق الافتقار إلى ا، ويزداد صاحبه انتباهًا لما أُعطي وما ينبغي أن يعمل. فيمضي إلى يومه مستعينًا بربّه، شاكرًا لفضله، راجيًا رحمته، حريصًا على أن يجعل من نعمته بابًا للخير.